سامية والمجهول

جلست سامية وحيدة شريدة وقد بدت عليها آثار التعب المنهك ، وارتسمت على سحنتها المنقبضة أشباح أحزان ، وتدلت من عينيها نظرات شاحبة تنم عن حزن دفين ينطوى على انسحاق قلبها وظلمة نفسها .. جلست تستعيد ذكرى أيام مضت مع ذلك الوغد الذى عقد عليها وربط اسمها باسمه أمام السماء وأهل الأرض منذ أن طلب يدها من خمس سنوات ووافقه أبوها رغما عنها ، ومنذ ذلك اليوم المشئوم لم يحاول أن يدنو منها يدغدغ حواسها بكلمات رقيقة تستميل قلبها وتلهب عواطفها وتشعرها بأنوثتها ، ومما زاد همومها أنه منذ سفره للخارج وهو يتجاهلها بقصد أو بدون قصد ولم يفكر يوما فى محادثتها تليفونيا .

بالرغم من أنها لم تجد له هوى فى نفسها إلا أنها تنتظر اليوم المعهود لتكتمل الزيجة وتزف إليه ، وخصوصا وهى ترى بنفس ملتاعة وبعيون تملأها الدموع لهفة الأهل لذلك اليوم ، ولم تشأ أن تطفئ قنديل الفرحة فى مهده .

استرجعت " سامية " أحاسيس يوم تسرب إليها خبر اقتران زوجها المنتظر بسواها ، وأحست بالخلاص من براثن ذلك الوحش الكاسر ، فهى لم تعد تدرى ماذا تريد ، ولا تفرق بين ما يسعدها وبين ما يدمى قلبها ، ورغم كل ما تعانيه فلابد أن تدور عجلة الأيام ، فتتظاهر أحيانا بالسعادة وهى لا تدرى لها معنى ، وترسم الابتسامة على ثغرها وهى لا تعرف لها مذاقا ، وتطلق الضحكات على استحياء

فتجيء كالأنين ممزوجة باللوعة والأسى ، وتسعى جاهدة للتغلب على أوجاعها وإخفاء أحزانها ومداواة همومها داخل جسدها الضئيل المتهالك ، فهى على قدر ما كانت تنتظر يوم الخلاص على قدر ما تبغضه ، إنها أضحت تبغض الحياة ورغم ذلك تتمسك بها ، ولم ترفرف أسراب الطيور بالفرحة فوق أشلاء نفسها بعد أن فك الوغد اللئيم ارتباطه بها وأصبحت حرة طليقة .

أفاقت " سامية " من غفوتها اليقظة ، وتبددت أشتات أفكارها على صوت سيدة فى العقد الخامس من عمرها ، إنها الحاجة " مبروكة " التى تقطن بالقرب من منزلهم ، استقبلتها أمها ، تبادلتا كلمات الترحيب ثم انزويتا فى حجرة مجاورة ودار بينهن همس ، وبعد طول حديث انصرفت الحاجة " مبروكة " فأسرعت أمها إليها وعلامات البشر تفوح من وجهها وتستقر على وجنتيها واحتضنتها وقد امتزجت أهازيج الفرح ببوادر البكاء ، وبصوت مفعم بالشجن قالت :

- ألف مبروك يا بنتى ، ألف مبروك .

فتقطب جبينها وتجهمت نظراتها ، وأيقنت مقصد أمها ، فتلك السيدة التى كانت فى ضيافتهن على غير العادة قد عاد ابنها " رأفت " من عمله بالخارج ، ولابد أنه أحضر معه بعض الدولارات ويعتزم شراءها لتقترن به ويستمتع بجسدها دون أن يلمس غلاف روحها أو يستولى على شغاف قلبها .

ازدادت " سامية " ضيقا ففكت أسرها من بين أحضان أمها وتمتمت ببعض الكلمات المتآكل أنصاف حروفها وصرخت قائلة :

- لن أتزوجه ، ولن أتزوج غيره .

وغادرت المكان بخطوات قلقة تاركة أمها التى تسمرت فى مكانها بين الشك والحيرة متخيلة أن روحا شريرة قد مست جسد ابنتها وتمكنت منها فارتفع صوتها بالنداء عليها ولكنها لم تعبأ بها وأسرعت إلى حجرتها وأوصدت الباب خلفها ، وارتمت فى فراشها وقد شعرت بالمرارة وامتدت إليها يد الإحساس بالإثم ، وأنها سبب التعاسة التي خيمت على ذلك المنزل الهادئ الذي اختفت منه الابتسامة أو كادت ، حتى شقيقها " مخلص " لازمته الكآبة ولفه الصمت ، فهى لا تنسى يوم أن جلس بجوارها وطلب منها أن تصدقه القول عما إذا كان هناك من يستحوذ على قلبها ويملك عليها حواسها ، ويقف حائلا بينها وبين السعادة التى ينشدها لها ، واشتمت يومها رائحة الاتهام تفوح من

طيات حديثه فأجهشت بالبكاء ولم تجد توسلاتها يومئذ سبيلا إلى قلبه وهى تستحلفه أن يرحمها ويبعد عن مخيلته شبح تلك الأفكار الكريهة فهى لم تكن تريده ولا تريد سواه .. وزاد حنقها ، ولكن سرعان ما هدأت قليلا حينما تذكرته وهو ينهى حديثه ويبدى أسفه ويؤكد لها أن لم يقصد أن يزيد هوة جروحها .. ولكنها عاودت تجهمها لإدراكها بحواسها ومشاعرها بأن نظرات أبويها المسلطة عليها تنطوى عن اتهام وإن كانوا لم يصرحوا به ، إن نظراتهم تقتلها ، وحديثهم يشعرها أنها تقضى أيامها الأخيرة كالمريض الذي فشلت معه كل فنون الطب فتركه ذووه يزدرد ما تشتهيه نفسه ، فهى إن جلست وحيدة تركوها فى وحدتها وكأنهم يخشون إخراجها من عالمها فتذبل وتموت ، وإن جلست بينهم تلتزم الصمت فينصاعوا لرغبتها وتعمهم السكينة القاتلة .

فكرت أن تريحهم وتريح نفسها وتقبل " رأفت " زوجا لها بالرغم من أنه أيقظ أحزانها ، وهمت بالإسراع إلى أمها والإفصاح عما يدور بخلدها ، ولكنها أحست أن قوة خفية تمسك بها وتحول بينها وبين الحركة ، أيكون الخوف من المجهول الذى ينتظرها ، أتقبل هى إليه بنفس راضية وتحبس نفسها داخل قفص صنع من الخوف .. لماذا اختارها " رأفت " بالذات دون بنات قريتها ، لابد أن نفسه تنطوى على مطامع لا تعلمها ، أو جاء من أجل القضاء على البقية الباقية من أمل يربطها بالحياة ، إنه لن يكون خير من سابقه بل ربما يكون أفظع وأشرس ، فهو كبقية الوحوش الآدمية أتى لينشب مخالبه فى جسدها البض الذى لم يعد يحتمل لمس الأيدى الناعمة ، وظلت تراودها الهواجس حتى أحست بنار الغيظ تلتهمها فانخرطت فى البكاء الممزوج بالصراخ المكبوت .

استدعتنى الست " عواطف " والدة " سامية " وطلبت منى إقناع ابنتها بقبول العريس المرتقب لا سيما أنه الزوج المناسب من كل الوجوه وربما ينسيها كل ما مر بها من أهوال .

اقتحمت عليها عزلتها ، ولا أدرى أهو من حسن الطالع أم من سوءه ، فوجدتها سقيمة القوام معلولة الجسد.. تسمرت فى مكانى والدموع تتزاحم فى مقلتى باذلا كل جهدى أن أحبس دمعة مريرة تريد أن تذرف رغما عنى ، ووقفت والشفقة تسحق قلبى ، ولم أجد ما يسعفنى من كلمات لتعزية ذلك القلب الجريح ، تماسكت واقتربت منها وأنا أنظر إليها نظرات حانية .. وقبل أن أنطق بأولى كلماتى أشاحت بكلتا يديها فى وجهى قائلة :

- لقد اكتفيت بكلمات الحكمة والموعظة ولم أعد فى حاجة إلى المزيد منها .
وعلا صراخها ونحيبها وهى ترمينى بنظرات شرسة يتطاير منها الشرر رغم معرفتها بى وتقديرها لى وثقتها فى .. واستطردت :
- هل أنا شكوت لكم ، هل طلبت منكم الزواج .. لن أتزوج .. دعونى فى حالى .
تماسكت وأحطت نفسى بهالة من الهدوء والوقار وخصوصا وأنا أعرف مدى حسها المرهف ورقتها المفرطة قائلا :
- أنا لن أطلب منك الزواج ممن لا ترغبين .
- لا أريد الزواج مطلقا .
- لم كل هذا اليأس ، أمن أجل وغد حقير تكرهين الدنيا وما عليها .
- هى تلك مصيبتى ، إنهم يعتقدون أننى حزينة ، لأنه تركنى وتزوج بأخرى ، أقسم لك أنه لم يخطر ببالى يوما ، فأنا لا اشعر نحوه بأى عاطفة ، لم أكن أحبه ولا أكرهه ، إنه لم يمس شغف قلبى حتى أستشعر فقدانه .
- أنا لا أوافقك الرأى ، فوجود عنصر الشر فى النفس يستوجب تواجد عناصر للخير .
- لكنى لا أريده ولا أريد سواه .
- إنك تفسحين الطريق أمام الألسن لتتبوأ سيرتك وتتطاول عليك .
- هذا ما حدث من أقرب الناس لى وأحبهم إلى نفسى .
- إذن لابد أن تخرسى تلك الألسنة وتعلنى موافقتك فورا .. وتخوضى التجربة فإن لقى هوى فى نفسك تكملى معه ، وإلا فلا .. يعنى فترة خطوبة تدرسى أخلاقه وطباعه خلالها .

- أنا أعرف نفسى ، لن أقدر على دراسة أحد أو الحديث مع أحد ، إن شيئا ما داخلى قد كسر .
- فلتحاولى ، ربما كان هو الرجل المناسب ، وأنا أعلم أنه متدين وعلى خلق .. حاولى عشان خاطرى أنا .
صمتت برهة ، وقد هدأت نفسها ، ودبت السكينة فى كيانها وانفرجت أساريرها وانحدرت بسمة فاترة إلى ثغرها ، وقالت :
- سأحاول لثقتى برأيك واحترامى لرغبتك ، ولكنى لا أستطيع أن أعدك بشئ .
- حاولى ، على أن يكون ذلك عن اقتناع ورغبة .
استأذنت وتركتها فى معبدها بروحها المقدسة تتكهن مستقبلها المجهول .. تركتها وأنا أتساءل هل جنى عليها ذلك الوغد عندما تركها واتبع هوى نفسه واقترن بأخرى ؟ أم أنه أحسن صنعا عندما ابتعد عنها قبل أن يخضع جسدها بالزواج دون ميل روحها بالمحبة.